الفصل الحادي عشر
لأنك لم تفعل

-" ألبرت ناعوم "، ما كل هذا النجاح يبدو أنك تصارعني من أجل انتزاع اللقب.

قهقه " ألبرت " قائلاً:

-صقر الموساد لا يليق إلا بك يا " إيلان ".. لم أهاجم المعسكر؛ لأنتزع اللقب منك، ولكني كنتُ أؤدي واجبي تجاه إسرائيل فحسب.

-لم تكن غارةً على نحو واسعٍ ولكنها كانت موفقة.. لقد نجحت في بث الرعب في نفوسهم، وبالتأكيد هم الآن يحاولون توقع أي المعسكرات سيكون محل هجومنا في الفترة القادمة.

-دعك من هذا كله.. القيادة المصرية أعلنت وجود السيدة " حياة حمدي " داخل الأراضي المصرية، ونفت أي إشاعاتٍ مغرضةٍ تدل على اختفائها.. كما أن حركات المقاومة الفلسطينية أعلنت وصول السيدة " حياة حمدي " إلى مطار القاهرة الدولي منذ عدة أيامٍ.. أعتقد أنه من المحتمل أنهم قد أرسلوا إلينا بواحدة أخرى غير مستشارة رئيس الجمهورية.. لم أنم ليلة أمس من التفكير في هذا الأمر لو كان الأمر كذلك ستكشفُ كل وسائل الأخبار فضيحتنا المؤلمة هذه.

قال " إيلان " بابتسامةٍ عريضةٍ:

-دعك منهم إنهم يشتتون تفكيرنا ليس إلا.. أنا أعلم تمام العلم أن الموجودة هنا هي" حياة حمدي " بنفسها.. ومتيقنٌ من هذا تمام اليقين.

-ومن أين أتيت بكل هذه الثقة؟

-" إيلان إيرائيل " له طرقه الخاصة ومصادره الموثوقة.

-الأمر لك.. والعملية تخصك كما تعلم، ولكنني أردتُ تنبيهك.

-لا تقلق بشأني.

-ماذا ستفعل بأمرها إذن؟

-لقد أعددتُ للجميع مفاجأة خاصة بشأنها، ستعرفونها في الوقت المناسب.

قال " ألبرت " ضاحكاً:

-" ألبرت ناعوم " عليه أن ينتظر الوقت المناسب هو الآخر؟!

-هو بالذات.

-هكذا إذن.. على كلٍ "جان " في طريقه إلينا الآن؛ لنتحدث بشأن العملية القادمة.

-" جان " هذا لا يروق لي.

-في الحقيقة، هو أيضاً يبادلك الشعور نفسه.. وبكل أسفٍ، أنتما تروقان لي، وأرى أنكما ثروةٌ عظيمة للموساد.. ولم يكد يُتم كلمته حتى طرق باب المكتب، ودخل منه " جان " دون أن ينتظر الإذن بالدخول.

ألقى التحية على " ألبرت " متجاهلاً وجود إيلان، وبدون مقدمات فتح الخريطة التي بين يديه، ثم وضعها على المكتب، وأمسك بالقلم وراح يروي كل تفاصيل العملية الجديدة.

******

وقبيل الفجر، استيقظت " جهاد ".. أدت صلاتها وتناولت فطورها بغرفتها.. ارتدت ملابسها، ولفت شعرها بحرصٍ حول رأسها، ثم ارتدت غطاء الرأس العسكري.. غادرت غرفتها، واتجهت إلى السيارة المتوقفة أمام المعسكر.. ألقت التحية على السائق الذي ما إن رآها حتى قال:

-القائد يُتمم على الجنود في عجلٍ، وترك لك أمراً بالانتظار حتى يأتي.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى أتى، وانطلقت السيارة تجاه الطريق المؤدية إلى غزة.. وبدأت الشمس ترسل أشعتها الدافئة، والتي لم تنجح في السيطرة على البرودة التي تنتشر في الجو.. وحكّت جهاد كفيها ببعض في محاولةٍ لاستجلاب الدفء، وأحسّت أن البرد ينفذ إلى عظامها من خلال الملابس التي ترتديها.. ورغم ذلك عقلها لم يهدأ من التفكير في كيفية ذهابها إلى غزة ثانية رغم معرفة الجميع بها هناك.. دورها كصحفية سابقاً جعل لها شهرة عريضة وفرض لها مكانة مميزة وسط الجميع.. وإذا كانت قد نجحت في تقمص شخصية رجل في المعسكر فترى هل ستنجح أيضاً في تقمصها أمام مَن يعرفونها؟!

وأمسكت بإحدى الكوفيات الموجودة أمامها على مقدمة السيارة ونظرت إلى ياسر الذي يجلس بجانبها قائلةً:

-الجو بارد.. ولقد لفح الهواء وجهي حتي تشققت بشرتي، والتهبت جيوبي الأنفية سألفّ هذه الكوفية على وجهي حتى يهدأ.

ودون أن ينطق مبدياً رأيه لفّت هي الكوفية حول وجهها بحرصٍ فلم يظهر منها سوى عينيها اللاتي ملأتها الدموع والخوف الممزوج بالحنين إلى المكان الذي ترعرعت

بين ساكنيه، وبيوته، وطرقاته.. واقتربت السيارة، وأحسّت جهاد بريحٍ من الحنين تلفح قلبها فظلت تُملي عينيها من الطرق واحداً يلي الآخر.. تلك الطرقات، التي تحفظها عن ظهر قلبٍ.. وأخيراً، وصلت السيارة إلى المنطقة التي كانت تسكن به.

هذه نهاية حي " الأحرار "، وهذا شارع " باريس " الذي يفصل حي الأحرار عن حييهم.. وعبرت السيارة يميناً في الشارع الشبه خال من المارة؛ لبرودة الجو وللساعة المبكرة التي أتوْا بها.. ودق قلبها في عنف، يبدو أن صديقه هذا يقطنُ بالحي الذي كانت تقطن به، وازدادت المهمة صعوبة وهتفت " جهاد ":

-أين يقطنُ صديقك هذا؟

-في هذا الحي.. لا يفصلنا عن بيته سوى خمس دقائق.

وهتفت " جهاد " في ذعرٍ:

-أمتأكدٌ أنت؟

-نعم.. لقد أتيتُ لزيارتهم في بيتهم من قبل.

نظر إليها ياسر في تعجبٍ لطريقة سؤالها قائلاً:

-هل حدث شيءٌ ما؟

-لا.. كنتُ أستفسر فقط.

مط " ياسر " شفتيه متسائلاً:

-تستفسرُ عن ماذا؟

فقالت في تلعثمٍ:

-عن مكانهم.. لربما أتيتُ لزيارته فيما بعد.

وظلت السيارة تقتربُ من الشارع الذي كانت تسكنه، وقلبها يكاد أن ينخلع من مكانه.. تحسست الكوفية التي تغطي وجهها، ومسحت دمعة كادت تسقط من جفنيها.. ترى مَن تكون هذه الأسرة؟ إنها تعلم الجميع هنا.. تعلمهم واحداً واحداً.. ولم تسعفها ذاكرتها في تخمين مَن تكون الأسرة المنكوبة والتي قرر" ياسر" المجيء إليها بنفسه؟

وعبر زجاج السيارة، نظرت مرة أخرى إلى الطريق.. هذا هو الطريق الغربي، وهذه هي شجرة الزيتون التي لطالما جلست تحتها.. وهذه هي المدرسة التي تخرجت منها.. أمعقولٌ أن يعيدها القدر إلى هنا مرة أخرى في ثياب مجاهدٍ فلسطيني بعد أن فرت من هنا في ثياب يهودية خائنة؟ هل الدنيا صغيرة إلى هذه الدرجة؟ وفركت كفها في عصبيةٍ.. وبحذرٍ شديدٍ نظرت إلى " ياسر " الذي يرمقها بنظراتٍ مستفهمة بين آنٍ وآخر مستفسراً عن سبب توترها غير المبرر.

حاولت أن تقول أي شيءٍ يخرجها من هذا المأزق الذي وضعها القدر فيه، لكن الكلمات هربت من بين شفتيها.. فجذبت نفساً طويلاً أنقذها من الاختناق، ثم تلفتت حولها فلم تنظر سوى الشارع التي كانت تسكن به، وكادت الأنفاس أن تحتبس في صدرها، والسيارة تقطع المسافة القليلة المتبقية بينها وبين مسكنها، وأحسّت بالخوف، إنها تكره أن يخونها القدر، ويظلمها مرة أخرى، ويعلم الجميع أنها من أصلٍ يهودي فيسومونها سوء العذاب دون ذنبٍ لها أو جريرة.

وكادت أن تأمر السائق بالتوقف؛ لتهبط من السيارة ذاهبة إلى غير عودة.. ليتها تموت، وتحديداً في هذه اللحظة.. لن ينقذها من هذا الموقف الذي وضعها القدر فيه

سوى الموت.. الموت شيءٌ هينٌ.. هينٌ جداً.. قد يأتي في أعز أوقات احتياجنا للحياة.. وقد يأبي الوصول في شدة احتياجنا له.

لو علم أحد بوجود يهودية الأصل في أحد معسكرات المقاومة؛ لأذيعت فضيحتها على كافة محطات الوطن العربي، ولن يلتمس لها أحد أي عذر، ولن يشفع لها ماضيها في التمثيل بها.. وبغير إرادةٍ قرأت الفاتحة.. تلتها بسرعة خلال المسافة القليلة الباقية بينها وبين بيتها.. وتوقفت السيارة، واستعد " ياسر " للنزول، وهي ما زالت جامدة مثبتة في مكانها كالتمثال.. ونظر إليها " ياسر " قائلاً:

-يبدو أنك متعبٌ اليوم.. لو كنتُ أعلم هذا؛ لتركتك في المعسكر؛ لتستريح، أو كنتُ سأصطحب أحداً غيرك.

ورددت في داخلها:

-ياليت.

ثم أردف هو:

-على كلٍ ، حدث ما حدث، ولا يوجد أمامنا إلا أن نكمل المهمة.. وترجلت من السيارة.. ونظرت يميناً إلى بيتها، ودمعت عيناها، وحاولت السيطرة على الغيث الذي يكاد يهبط منهما لكنها فشلت.. نظرت إلى الحديقة التي قصفت نصف أشجارها، وشلّ النصف الآخر.. وإلى البيت الذي أصبح أثراً بعد عين.. إلى غرفتها التي تهشمت نافذتها، فأصبح البيت كله كأطلالٍ خربةٍ مهجورةٍ.. هل هذا هو البيت الذي عاشت أفضل أيامها فيه؟

جذبها " ياسر " من شرودها، وتكلم في ضيقٍ :

-هل سنقفُ طويلاً هنا؟

وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ :

-أين البيت المقصود؟

-ها هو.. وأشار إلى البيت المجاور.. المجاور لبيتها تماماً.. وكانت المفاجأة

******

ذهبت " سلمى " إلى المحطة، وأحسّت أن هناك جواً غريباً مشحوناً بالقلق، ومنذ أن سُحبت التراخيص من المحطة والجريدة التابعة لها فأصبحت الأجواء غريبة ومزرية.. منذ انتهاء الغارة، ولا يجسر أحد من الإعلاميين أو الصحفيين أن يكتب مقالاً واحداً طبقاً لتعليمات الصحافة الجديدة التي وضعتها الرقابة الإسرائيلية، فشددت على كافة الوسائل الصحفية المرئية منها والمسموعة.

وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت منذ الأمس، وانتشر جنود الاحتلال في الشوارع، وأخذت دباباتهم تتجول في الطرقات، وأقبلت " سلمى " على زميلاتها بالمحطة؛ لتقطع عليهم صمتاً ثقيلاً يخيّم على رؤوس الجميع.. وتبادلت معهم كلماتٍ قصارٍ تدل على إلقاء التحية، وتساءل حسام:

-هل سنظل جالسين هكذا؟ إننا لم نكتب تقريراً، ولم نزر موقعاً واحداً منذ أكثر من عشرين يوماً.

وأجاب آخر:

-ماذا بأيدينا أن نفعل؟ إننا ندفع ضريبة الاحتلال من وقتنا ومن شبابنا ومن نفوسنا أيضاً.

وقال أحدهم:

-ظننتُ أن " جهاد " ستعود بعد هذه الغارة.. كانت تشتعل حماساً وقوةً، وتخوض غمار التصوير وقت اندلاع الغارات دون أن تخشى على روحها، ودون أن تهاب أحداً.. ترى أين ذهبت؟

وأرهفت الأسماع عند ذكر " جهاد " وتطلعت الأبصار إلى " حسام " ولم يعرف هل هذا التطلع لإنهم يشعرون بما يكنّ لها أم هو مجرد اهتمامٍ بشخص " جهاد " المبهر وباعتباره كان من فريقها؟

وازدرد ريقه، ثم قال:

-لربما عادت، مَن يدري؟

ورد أحدهم في لهجةٍ سخريةٍ:

-لو كانت ستعود؛ لأعادتها الأحداث العظام التي مرت.

وردت " سلمى ":

-" جهاد " بطلة.. لربما وجدت شيئاً ذا قيمة أكثر من الصحافة، فقررت القيام به.

فقال أحدهم في تهكمٍ وسخرية:

-لعلها ذهبت إلى الحرب.

ورد "حسام" في تمنٍ :

-يا ليت!!

وضحك الجميع فترجل واقفاً مغادراً الجمع كله.. وقالت "سلمى":

-خيرٌ لكم الذهاب إلى بيوتكم بدلاً من التهكم على زميلٍ أو زميلةٍ.. لا الوقت ولا المكان يسمحان بذلك.. ونهضت إلى خارج الغرفة، وتبادلت بعض الكلمات القصيرة مع "حسام" ثم عادا إلى الداخل مرة أخرى، ولم تمضِ بضع دقائق حتى أخذت "سلمى" حسام" يعدانِ فريقهما للمخاطرة والنزول إلى الشارع؛ لتوثيق ما يستحق التوثيق.

وقال أحد الجالسين ناصحاً:

-لا تفعلا ذلك.. إنكما إن فعلتما ستخالفان التعليمات، وتصويركم الآن سيعد جريمة.

رد "حسام" في حسمٍ:

-لن نأبه للتعليمات.. هل سنظل كالنساء لا نفعل شيئاً، منذ صدورهذه التعليمات الجائرة ونحن بلا فائدة فهل سنظل كذلك؟

-ليس هذا وقت تحدٍ.. النفوس مشحونة، والتوتر يعم الأرجاء، ولن يدفع الثمن سوى المدنيين.

-الوطن كله سيدفع الثمن إن ظللنا هكذا.

-أنتما تلقيان بأنفسكما إلى الهاوية.

-ولكننا على حافتها، ولن تغير المقاومة من قدرنا شيئاً..

ثم قال عابساً ومحاولاً أن يغير دفة الحديث:

-على كلٍ، أعدكم أن هذا التقرير الذي سنسجله تصويراً وكتابةً سيقلب كافة الموازين.

وتساءلت "سلمى":

-هل لديك خطةٌ ما؟

والتمعت عين "حسام" قائلاً:

-نعم.. عندي خطة محكمة جداً.

وترك الغرفة وتبعته "سلمى" وتطلعت إليهم عيون قلقة حذرة، وبداخل أصحابها صوتٌ يردد:

-ليحفظكما الله.. ليتنا نملكُ نصف شجاعتكما.. بالفعل تستحقان أن تكونا في فريق "جهاد".. أو تستحق هي أن تكون ضمن فريقكما بعد غيابها غير المبرر هذا!

عبرت "سلمى" الممر شبه راكضة حتى تستطيع أن تلحق "حسام" بخطواته الواسعة، وما إن وصلته حتى هتفت:

-إلى أين سنذهب.. أنا لم أعلم وجهتنا بعد؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ثم قال:

-دعيها مفاجأة.

-لا أصبر على المفاجآت، أخبرني الآن.

-قلتُ لا.

كادت "سلمى" أن تتشبث بذراعه، وأن تمنعه من التحرك حتى يخبرها وجهتهما أولاً.. ولكنها تراجعت في اللحظة الآخيرة.. لا تدري لمَ تتحول إلى طفلةٍ صغيرةٍ بجانب "حسام"؟ لا تدري لمَ تكنّ له نفس شعور سندريلا لأمير القصر؟ إنه لم يمنحها فرصة واحدة للحصول على قلبه.. دائماً قلبه معلقٌ بجهاد، ورغم ذلك كثيراً ما حاولت أن تجمع بينهما متجاهلةً نداءاتِ قلبها ما دام هو متعلقٌ بجهاد فليسعد معها فهي لا تريد سوى سعادته.

احتل الاسرائيلون وطنها، واحتل "حسام" قلبها، واحتلت "جهاد" قلب "حسام".. الاستعمار يفرض نفسه على هذه المدينة، كل القلوب جريحة، وكل النفوس محتلة لقد نفاها "حسام" من قلبه ونفته " جهاد " من قلبها.

وهي الآن تعاني الهزيمة في كل شيء كجنديٍ فقد كل ما يخصه في الحرب حتى جثث أصدقائه لم ينجح في إلقاء نظرة أخيرة عليها.

إنها تحتاجه.. لكنها ترفضه عندما يمد لها يد العون، وتتجاهله وقلبها منتبه لكل تفاصيله، ودائماً ما تخرجه من حسابات قلبها وسرعان ما تعيده على رأس القائمة.

-في ماذا تفكرين؟

-في الحرب.

-حرب الوطن؟

-بل التي في صدري.

-ماذا بكِ؟ هل آذتكِ تعليقاتهم بالداخل؟

-لم يؤذني أحد.. لم ينجح أحد في إيذائي إلا أنا.

-ماذا؟

-لا شيء.. هيا بنا.

-بالمناسبة، ما فتأت أمي عن الحديث بشأنكِ، وبالمناسبة أيضاً لقد اختارت عريس لكِ.. ونظرت له في دهشةٍ:

-ماذا؟!!

-لا تنظري إليّ هكذا.. لقد أخبرتني أنها تكلمت معكِ بخصوص زواجكِ من قبل.. أليس كذلك؟

-نعم.

-هل تعلمين مَن هذا الذي تتمناكِ له؟

-لا.

-إنه أخي، وهي تراكِ خير زوجةٍ له.

وقالت بصوتٍ مبحوح:

-وأنت ماذا قلتَ لها؟

قلتُ لها:

-إنني لن أرى له أنسب وألطف منكِ.

توقفت في منتصف السلم وهتفت بصوت يحمل رنة البكاء:

-لقد دفعتني بكل قوتك إلى جهنم، وأنا التي لطالما بكيتُ لك شمعةً أحرقني لهبها.

-اهدئي.. اشرحي لي ماذا هناك؟

-لا شيء.. إني راحلة.

-والمهمة التي سنقوم بها؟

-غداً.. نقوم بها أو بعد غدٍ.. وابتعدت مسرعة.. وأسرع خلفها.

-"سلمى"، لم أقصد أن أقول شيئاً يُحزنكِ.. لقد خانتني الكلمات.

-لقد خانني العالم أجمع.

-ماذا فعلتُ؛ لتبكي بكل هذا الحزن.

-أبكي لأنك لم تفعل..وأكملت طريقها.

-سأطلب من أمي أن تهاتفكِ في المنزل؛ لتطمئن عليكِ.

-كما تشاء.. وابتعدت مغادرة تاركة خلفها حبيباً وخيبةً وجرحاً يأبى أن يندمل.

****

التفتت "جهاد" إلى البيت الذي أشار إليه "ياسر" وهوى قلبها على الأرض، فتوقف عقلها لبرهةٍ، ولم تعد لديها القدرة على التفكير، ولم تستطع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام، وجلست على الأرض في شبه صدمةٍ شلت كل أطرافها، وهتف "ياسر" حانقاً:

-هل جئنا بك من المعسكر؛ لتفترش الرصيف؟

-سأعود إلى السيارة إنني مريضٌ جداً.

-لن نمكث طويلاً، اكتب ما تقدر عليه حتى نستطيع أن نكون لهم ملفاً كاملاً نعود إليه في أي وقتٍ، ثم أردف في عصبيةٍ:

-وهذا أمرٌ لا مجرد طلب.. إن كنت تقدر على مخالفة الأوامر فعُد إلى المعسكر مرة ًثانيةً.

وحاولت جهاد النهوض مرة ًأخرى، وسارت تتبعهم إلى الحديقة في خطواتٍ وئيدة ومترددة، وعبرت من الباب الخارجي الذي تحطم نصفه، فلم يعُد ذا فائدة.. وتوقفت تنظر إلى البيت الذي لا زال رابضاً وإلى الحديقة التي أعلنت الاستسلام، مَن يصدق أن هذه الأطلال الخربة كانت حديقة غنّاء، وجنة مزهرة يوماً ما؟

كانت هنا أشجار الكروم تتهدّل عناقيدها، وعلى بعد أمتارٍ قليلةٍ، كانت هناك شجرة موز عجوزة تغطي أوراقها العريضة مساحة ليست هينة من الحديقة، ويفصل الحديقة الأمامية عن الخلفية هذه البئر التي هدمت جوانبها وتعكر ماؤها.. كانوا يسقون منه أشجار الليمون والزيتون والبرتقال.. لطالما ملئت هي الجرار من البئر، وكثيراً ما تسلقت تلك الأشجار واحدة واحدة.. كثيراً ما ركضت وراء زهرة وطارق.. هنا كانت الحياة جميلة، وكانت تحسّ بالطمأنينة والسلام.

تحولت ناحية البيت بمشاعر متضاربة ما بين الخوف والحنين، واتجهت إليه.. لقد حوى هذا المبنى لها السكن والعائلة، وهي اللاجئة والمشردة.. أيمكن أن تعود إليهم الآن؛ لتعينهم على الحياة من جديد؟

هل الحياة ضيقة إلى هذا الحد؟.. هل "طارق" هو المقصود بأنه على قيد سنتيمترات من الموت.. حاولت أن تطرد الفكرة من عقلها.. ربما البيوت المتهدمة والأسقف المنهارة جعلته يخطئ العنوان وتنهدت ورفعت بصرها إلى السماء في تمنٍ.

وطرق "ياسر" الباب الذي انفتح بمجرد أن وضع يده عليه، فتقدم إلى الأمام منادياً على أهل المنزل بصوتٍ عالٍ.. ومن إحدى الغرف برزت سيدةٌ خطّ الشيب رأسها، وبدأت التجاعيد في وجهها، وارتسمت الدهشة على ملامحها، وهي تسأل:

-مَن أنتم؟

ورد "ياسر":

-كيف حالكِ يا خالتي؟ إنني من طرف "طارق".. وأتيتُ هنا مرتين؛ لزيارته لعلكِ تذكرينني.

وابتسمت المرأة في مرارةٍ، وأفسحت الطريق قائلةً:

-تفضلوا.

لم يكن في لهجة المرأة من الترحيب والحماس والفرحة ما توقعه "ياسر".. كانت رنة الحزن تسيطر على صوتها.. وكانت "جهاد" تشعر أنها في شبه حُلم.. هل حقاً عاد الزمن بها؛ لترى هذه الأم مرةَ أخرى بكل هذا الحزن وهذا الانكسار؟ وأحسّت برغبةٍ عارمةٍ في احتضانها، وإخبارها بكل شيءٍ.. لقد خارت قواها، ولم تعد تستطيع المقاومة والاستمرار في كذبتها.

ونظرت "جهاد" إلى الناحية الأخرى؛ لتواري دمعةً أوشكت أن تسقط، وألقت نظرة على الردهة التي تجلس بها، وتساءلت في باطنها:

-أين العم "محمود".. أين "خالد"؟

ساد الصمت برهةً، وتكلم "ياسر":

-جئتُ للحديث معكم، ورغبة في لقاء الوالد والتخفيف عليه؛ ولأخبره أنني مثل "طارق" تماماً وبإمكانه أن يتكئ عليّ في أي وقتٍ.. إنه مثلي الأعلى في البطولة والفداء، فكثيراً ما قام بتهريب أسلحةٍ لنا عبر البحر متنكراً في زي صيّاد.. وآن الأوان أن نكرمه، وأن نرد له جميله.. وأن تمنحه المقاومة إحساناً فوق إحسانه.

لم يبدو على السيدة أنها أدركت شيئاً مما قاله، ولم تعلق بشيءٍ واستطرد "ياسر" يقول:

-لقد علمنا ما حدث لطارق، وسنعرضه بإذن الله على أكبر أطبائنا.. وسنرسل "خالد" إلى إحدى القرى النائية البعيدة عن القصف؛ لينجح في إتمام دراسته بعيدة عن هذه الأجواء المتشبعة بالقلق.

بدا التردد في عيني السيدة، ثم أطلقت تنهيدة طويلة، وقالت وكأنها تنعى خيبتها:

-خالد رحل.

وللحظة لم تفهم جهاد ماذا تقصد الأم برحيل خالد؟ وتساءلت:

-ماذا؟

فردت الأم:

-لقد رحل خالد ولم نعلم وجهته بعد.. لقد ذهب فور علمه بما حدث لطارق.

وهتفت جهاد مذهولة:

-وأين العم محمود؟.. ونظر إليها "ياسر" في تعجبٍ:

-هل تعرفه؟!

ولم تهتم "جهاد" بالإجابة عليه.. وكررت سؤالها ثانية.

-إنه يذهب كل يوم بعد صلاة الفجر؛ للبحث عن خالد.. وفي اللحظة نفسها دخل العم" محمود" محدوْدب الظهر منكسر الملامح.. ألقى السلام، وابتسامة عريضة تزين وجهه.. وضع طبق الفول الذي يحمله وأرغفة الخبز على المنضدة المجاورة.. ولم يكتف بالسلام على ياسر بل احتضنه حضناً عنيفاً ويكأنه يضم طارق إلى صدره.. لم تؤثر الظروف العصيبة في نفس العم "محمود"، ما زال كما هو مبتسماً وراضياً.. ويا لعجائب الحياة.. بلاءٌ يتبعه بلاء.. شيخٌ صابرٌ، وعجوز مكلوم، وزهرة ميتة، وابن ضائع، وسندٌ بين الحياة والموت.

مد يديه للسلام على "جهاد" فشعرت أنها في حاجةٍ لتقبيل هذه اليد التي مسحت على رأسها وآوتها ورحمتها عندما لم ترحمها الدنيا بأسرها.. واحتفظت بيد العم "محمود" بكفها دون أن تقصد فسحبها في رفقٍ وجلس يتحدث ويتساءل عن أخبار المقاومة وكأنه يتجنب ذكر ما حدث لطارق.

وبدأ العم "محمود" قائلاً:

-أحييكم على ما فعلتموه في الأيام الأخيرة.. إن العدو يمر بأيامٍ صعبة ومرهقة.. لقد فقد أكثر من مائة وخمسين قتيلاً في اشتباكاتٍ مباشرةٍ وضربٍ بالمدفعية وانفجاراتٍ وألغامٍ.

وتمتمت الأم بصوتٍ خافتٍ:

-إذا كان الأمر كذلك فلماذا حدث لنا ما حدث؟!

ورد الأبُ:

-حتى يرفع الله من درجاتنا في الجنة.

وتكلم "ياسر" بأسى:

-لقد علمتُ ما حدث لطارق وجئتُ؛ لتقديم المساعدة.

فقال العم "محمود":

-ليساعدنا الله يا بني.. لا تشغل نفسك بنا.. ما دام أمرنا في يد الله فهو لن يضيعنا.

-أعلم، ولكن هذا واجبي، ومن حق طارق عليّ أن أكرمه في أهله.. ألا توجد عندكم خادمة أو أحد للمساعدة؟

- كان هنا طباخٌ لكنه رحل فور اندلاع القصف، ولا يوجد هنا سوى أنا وهذه السيدة التي تؤنس وحدتي، وأشار مبتسماً إلى زوجته.. وضحك "ياسر" وتساءل:

-في المرات القليلة التي زرتُ بها طارق كنتُ أرى قريبة لكم هنا، ودق قلب جهاد، وهتفت الأم في عنفٍ:

-ليست قريبة لنا.. لقد آويناها، وأحببناها لكنها خانت العشرة، وأخلفت العهد، ولا أستطيع أن أفهم حتى الآن لمَ هُنّا عليها، ولمَ غادرتنا بكل هذه القسوة؟!

ورغم كل ذلك في كل مرةٍ أتخيل عودة طارق، وخالد أحلم بعودتها معهما.. إنني لم أفرقها عن أولادي قط.. إنها ابنة قلبي الذي أوجعته.. حاولت "جهاد" أن تتماسك، ولكنها فشلت، ولاحظ الجميع بكاءها، وقال الأبُ موجهاً الكلام إليها:

-أقلقناكم بمشاكلنا.

رد "ياسر": - لا تقل ذلك.. إنه متعبٌ من قبل حتى أن يأتي.. ولكن ماذا حدث لخالد؟ سمعتُ أنه قد رحل.

وتغيرت ملامح الأب، وكسا الحزن ملامحه، وشعرت " جهاد " أن قلبها يعتصر في جوفها وتمتمت الأم في أسى قائلةً:

-لم يرحم ضعفنا هو الآخر، ولم يرحم حاجاتنا له..

ولمعت صورة "خالد" في ذهن جهاد أثناء آخر لقاءٍ لهما عندما كان يحاول إقناعها بأن يذهب إلى إحدى المعسكرات، وهتفت في حماسٍ:

-إنني أعلم مكانه.. بالتأكيد في إحدى معسكرات التدريب.

ونظر إليها ياسر في تعجبٍ مرة أخرى قائلاً:

-مِن أين لك هذا؟

تلعثمت "جهاد" موجهة الكلام إلى العم "محمود" قائلةً:

-بالتأكيد هو هناك، سأبذل قصارى جهدي؛ للتأكد من ذلك.. وسنرسل أحد جنودنا؛ لنطمئنكم عليه في القريب العاجل.. فبسبب الرقابة على المصالح البريدية فلن نستطيع أن نكتب لكم ذلك.

دوّنت "جهاد" بعض المعلومات التي أشار إليها "ياسر" أن تكتبها، وبينما هي تفعل أخرج ياسر مظروفاً منتفخاً ووضعه على المنضدة المجاورة، وأحسّت "جهاد" بالرغبة في البكاء ولكنها جاهدت كي تطويه في باطنها.

أهذه هي الأسرة التي كانت تعيل الكثير من أسر الشهداء سراً؟ أيعقل الآن أن تقبل الصدقة والتبرعات؟.. ما أعجب القدر؟! وما أَصدق قول الله تعالى " وتلك الأيام نداولها بين الناس " وشعرت أنها بحاجةٍ لأن تواري دموعها التي أفلتت من عينيها رغماً عنها.. وأن تتأكد من مظهرها المستعار فطلبت الدخول إلى دورة المياه..

وأشار إليها العم "محمود" بأنها في نهاية الطريق واتجهت إليها "جهاد" وبعد أن تأكدت من مظهرها، وجدت نفسها أمام الباب الخلفي والذي يطل على الحديقة التي تربط بيتها ببيت العم "محمود" والتي كثيراً كثيراً ما صنعت ذكرياتٍ فيها.

وفتحت الباب، وخطت بضع خطواتٍ في الممر الذي يؤدي إلى حديقة بيتها تماماً.. وتعثرت بأحد فروع الأشجار، وكادت أن تقع لكنها استعادت توازنها في اللحظة الأخيرة، وجلست على الأرض مثنية قدميها تحتها.. وأتى "ياسر" من الخلف وشعر أن في الأمر خطباً ما، وليس المرض كما يدعي جنديه المفضل، وتقدم خطواتٍ قليلة، واقترب منها من الخلف، ومسّ كتفيها برفقٍ فأصابتها رجفة.. واستدارت إليه فوجد في عينيها الواسعتين الزرقاوين دمعتان قد انحدرتا حتى بللتا زاويتي شفتيها فابتلعتهما في صمتٍ، وأحسّ من دموعها الصامتة المنحدرةِ على وجهها أنها بحاجة للراحة ومغادرة المكان.

في تلك اللحظة تحديداً، كانت إحدى سيارات المحطة تقلُّ "حسام" و"سلمى" وبعض أفراد فريقهما؛ لتنفيذ خطة "حسام" في تصوير أحد المواقع التي لا تخطر على بال أحد.. وإذا بالسيارة تعبر الشارع نفسه الذي كانت تقطنُ به "جهاد" يوماً.. وأخذت "سلمى" نفساً عميقاً، وقالت:

-لكم اشتقتُ إليها؟

وتمتم "حسام" بصوتٍ خافتٍ:

-وأنا أيضاً.

واقتربت السيارة من منزل "جهاد" ولمحا إحدى السيارات المتوقفة أمام البيت، وتبادلا النظرات المتسائلة، وهدّأ السائق من سرعته بناءً على أمر "حسام" الذي نظر إلى "سلمى" دون أن ينطق لكنها فهمت مغزى نظرته، وتركا السيارة، واتجها إلى بيت العم "محمود".. وطرق "حسام" الباب، وكان اللقاء غير المتوقع.